



الاثنين 22 فبراير 2010 02:03 م  
كتب: بقلم: جمعة أمين عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم.. والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم..

المتأمل في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي يعيش مراحلها يظهر له أول ما يظهر كالشمس في رابعة النهار ما اشتهر به صلى الله عليه وسلم بين قومه، ألا وهو خلقه الرفيع، والسلوك الحميد، والقيم العالية، والصدق والأمانة، حتى سموه الصادق الأمين؛ وذلك قبل البعثة بأربعين عامًا وبعدها إلى أن صعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى.

لقد كان لهذا الخلق الذي برز في سلوكه صلى الله عليه وسلم بين قومه الأثر العميق في نفوسهم فصدقوه في كل ما يقول، فحين وقف على الصفا وقال لهم: "أرايتم إن أخبرتكم أن خيلاً تُغير عليكم خلف هذا الوادي أكنتم مصدقي"، قالوا: ما عهدنا عليك كذباً قط.

نه الأدب الرباني الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"، أدب شرح الله له صدره وتحلى به؛ لتكتمل فيه الشخصية الإنسانية المتكاملة خلقاً ودينًا، وليصبح الأسوة الحسنة **«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا (21)﴾** (الأحزاب). فكان صلى الله عليه وسلم المقصد والوجهة والأسوة الحسنة لقومه، بل والخلق أجمعين يسعى في حاجاتهم ويحل لهم مشاكلهم، وما قصة الحجر الأسود منا بعيد، إنهم لم يجدوا مكانًا آمنًا يحفظون فيه أماناتهم وأمورهم غير بيته صلى الله عليه وسلم، فكان قبلتهم في كل أمورهم، فحق له صلى الله عليه وسلم أن يقول: **"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"**.

قد أصبحت هذه الأخلاق التي وصفه بها المولى قرآناً يُتلى في صلواتنا نتعبد بها **«وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)﴾** (القلم)، وتأمل الجانب الأخلاقي فيه والذي قدمه المولى به لأهل الكتاب ووصفه لهم **«النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي النَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الْمَلِيئَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَبَصَّرُوهُ وَابْتِغُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)﴾** (الأعراف).

قد تربي الصحابة على هذه الصفات وتحلوا بها كما أكد القرآن ذلك مبيّنًا هذه الأخلاق الحميدة فيهم **«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي النَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أُخْرِجَ سَطَأَهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَمْلَأَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ يُعْجِبُ الرَّاعِيَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29)﴾** (الفتح).

إنهم نماذج إنسانية تجسدت فيهم الأخلاق المرثية فترى بينهم صدق الصديق، وعدل عمر، وعفاف عثمان، وشجاعة علي، وإقدام خالد، وحياء أبي، يقول العلماء: لقد تفاوتت الصحابة في حصولهم على العلوم المختلفة فترى فيهم ترجمان القرآن، وعالم الفرائض، وراوي الحديث، وغير ذلك من العلوم التي اشتهروا بها، ولكنك لا ترى تفاوتًا بينهم في الأخلاق فلقد امتازوا جميعًا

بالخلق الفاضل والكمال، حتى أصبحوا كالنجوم في السماء يهتدي بهم السائر في الليالي المظلمة.

لقد أصبحت هذه الأخلاق منهج حياة للمسلمين في حربهم وسلمهم، في شرائعهم وبيعهم، في زواجهم وطلاقهم، في قولهم وفعلهم، وكيف لا؟ والبيعة الأولى للمسلمين، بيعة العقبة الأولى والتي سميت ببيعة النساء كانت بيعة على الأخلاق، وأول الأخلاق أن تقدر الله حق قدره فتسلم له نفسك؛ وذلك بصحة العقيدة التي تترك أثرها الأخلاقي في أتباعها (تخلقوا بخلق الله) سبحانه وتعالى، وما عظام الأخلاق إلا أثر من آثار عقيدة التوحيد ثم تأتي بعد ذلك العبادات، لتعمل أثرها الأخلاقي في المسلم العابد من صلاة تنهى عن المنكر، وزكاة تطهر القلب، وصوم يصيب المسلم بالنعوى، وحج يحقق التجرد، ويزداد خلقًا بالنوافل والسنن وحسن القرب إلى الله.

فإذا تعامل المسلم بعد أن اصطبغ بصيغة الله، ومن أحسن من الله صيغة، وأصبح خلوقًا بين الناس طهرت هذه الأخلاق في علاقته المختلفة بينه وبين والده وبين أسرته وأقاربه، بينه وبين معارضيه وجيرانه وفي مكان عمله بل في بيعه وشرائه وفي زواجه وبين أولاده، فإذا نادى منادي الجهاد، ظهرت أخلاقه قبل سلاحه، وأصبح لبنة أخلاقية في مجتمعه يتعامل بهذه الأخلاق في جميع مناحي الحياة ويقدم النموذج الذي يقتدى، فيراه المخالف قبل الموافق فيفتح الله به القلوب الغلف والأعين العمى والآذان الصم ويتحقق فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لئن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرًا لك من الدنيا وما فيها أو خير من حمر النعم"، وهكذا يكون بهذه الأخلاق داعيًا لمشروعه الإسلامي، وصدق الإمام البنا حين قال "كونوا عبادًا قبل أن تكونوا قوادًا تصل بكم العبادة إلى أحسن قيادة".

وتأمل أخلاقية هذه البيعة الأولى في قوله تعالى ﴿بَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْتِكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعُهُنَّ وَاسْتَعْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)﴾ (المتحنة)، لقد غرست هذه البيعة الأخلاق وأكدت على القيم، ثم كانت البيعة الثانية التي تمت على أيدي رجال صدقوا الله ما عاهدوه، فأحبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم وتميز أصحابها بالصدق مع الله، والشجاعة والإقدام والإيثار والتضحية والإنفاق والحب في الله والأخوة الصادقة ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: من الآية 9)، وبالسنة طاهرة كانوا يرددون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر: من الآية 10)، وبهذه الأخلاق تحقق الترابط ووحدة الصف، بل وتحقق الركبان اللذان يقوم عليهما صرح دولة الإيمان حين يتحقق العقدان (عقد الإيمان ثم عقد الأخوة).

إن الأخلاق وهي ثمرة العقيدة الصحيحة هي التي تضبط حركة المسلم داخل جماعته، فلا قيمة لجماعة لا يتحلى أفرادها وقيادتها بالأخلاق الكريمة؛ وذلك لأن الجماعة لا تتحقق أهدافها إلا بقوة الرباط الإيماني القائم على الأخلاق وقوة الرباط التنظيمي القائم على الأخوة فيتحقق فيها السمع والطاعة في المنشط والمكروه ولا تبالي بشدة البلاء الملازم للإيمان، فإن حظي بعض أفرادها بالشهادة يقول كل منهم ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه: من الآية 84)، ﴿قَوْمُهُمْ مَنْ قَصَىٰ نَحْبَهُ وَوَيْلٌ لَهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: من الآية 23).

إن الأخلاق في الجماعة لا تترك أثرها الفعال إلا بالإخلاص: إخلاص للمنهج والأفراد والقيادة، وبذلك يتحقق الصلاح قبل الإصلاح هذه هي البداية السليمة ﴿أَفَمَنْ أُسِّنَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّنَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ سَفَا جُرْفٍ هَارٍ قَائِمًا بِهِ فِي تَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)﴾ (النوبة).

فأين أنت يا أخي الحبيب من هذه البداية الصحيحة التي هي الخطوة الأولى نحو الإصلاح؟، وهكذا تعلمنا من سيرة رسول الله كيف تكون البداية.

\* نائب المرشد العام للإخوان المسلمين